

مجلة كلية الكنعنة الإسلامية

عشر
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة تصدر سنوياً

1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

اخْتِتام النِّبوة
ظاهرة الشعراء الكُتّاب في لبديا
مالم يُذرع من المصطلحات النحويّة
مبمل لتاريخ الكنيسة

نبات المعري

بين الزهد والتكفير

الدكتور طاهر القراضي

إن «لزوم ما لا يلزم» ليس فقط عنواناً لديوان المعري المعروف بلزوم ما لا يلزم أو اللزوميات بل إنه كان منهجاً لحياة المعري كلها⁽¹⁾ فقد التزم بما لا يلزم فلم يتزوج مطلقاً، ولم يفارق الصوم إلا في العيدين منذ أن كان عمره ثلاثين عاماً⁽²⁾، والتزم بعدم الخروج من منزله لمدة نصف قرن تقريباً⁽³⁾ والتزم بعدم أكل الحيوان وما يخرج منه كالحليب والبيض والعسل لمدة خمسة وأربعين عاماً. كما أنه التزم ما لا يلزم في كل تأليفه الشعرية والنثرية التي ألفها

(1) طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط 9 دار المعارف/ مصر 1987 م ص 186.

(2) انظر رسالة المعري إلى داعي الدعاة (في معجم الأدباء، ياقوت الحموي ط 3، دار الفكر/ مصر 1980 م مجلد 2 جزء 3 ص 186).

(3) لم يغادر بيته طوال هذه المدة إلا مرة واحدة أمام إلحاح أهل المعرة عندما حاصرها صالح بن مرداس فخرج له المعري ورده عنها.

- أو أملاها - بعد قراره الالتزام بهذا المبدأ عندما رجع من بغداد إلى المعرة عام 400 هـ / 1009 م فلزوم ما لا يلزم صار مذهباً خاصاً في حياة المعري العملية وفي كل تأليفه منذ عام 400 هـ حتى وفاته عام 449 هـ. والذي يهمننا هنا هو نباتية المعري والتزامه بعدم أكل الحيوان وما ينتج منه. فلماذا أصبح نباتياً؟ إجابة عن هذا السؤال، يقول المعري: «... إن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق⁽⁴⁾. و: «... مما حثني على ترك أكل الحيوان أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً، فإذا أخذ خادمي ما يجب بقي لي ما لا يعجب فاقتصرت على فول وبلسن وما لا يعذب على الألسن⁽⁵⁾. و: «... أي ذنب لمن تخرج عن ذبح السليل ولم يرغب في استعمال اللبن ولا يزعم أنه محرم وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ورحمة للمذبح رغبة أن يجازى عن ذلك بغفران خالق السماوات والأرض؟⁽⁶⁾».

فمن كلام المعري نفهم أنه أصبح نباتياً لعدة أسباب أهمها: -

أولاً: الاقتداء بالمتدينين من الرسل والأنبياء والخلفاء والصحابة والتابعين الذين كانوا يتركون الحلال ويتنازلون عنه تقرباً لله جل شأنه وقد أورد المعري أدلة كثيرة تثبت أن أوائل المسلمين كانوا يزهدون في ما هو حلال مطلق.

ثانياً: دخل المعري كان محدوداً جداً، فلم يكن من ذوي الأحوال الميسورة في الدنيا، وكان لا بد له من خادم يخدمه ويقوم بمساعدته فإذا أعطى الخادم شيئاً من دخله - المحدود - لم يبق له ما يمكن معه أن يأكل اللحم وما ينتج من الحيوان، فاكتفى بما تنبته الأرض من النباتات.

ثالثاً: حرمان المعري من نعمة البصر جعله رقيق القلب، رؤوفاً رحيماً بالحيوانات فامتنع عن ذبحها وأكل لحومها وما يستخرج منها مع علمه بأن ذلك ليس حراماً. ومن المعروف في الإسلام أن الإنسان الزاهد هو الذي يستطيع أن يزهد في ما يحبه من الحلال المباح لأن الامتناع عن الحرام

(4) ياقوت. معجم ص 196.

(5) السابق 189.

(6) السابق 196 - 197.

الصراح واجب على كل مسلم ومطلوب من كل مسلم، فليس من امتنع عن الحرام زاهداً بل الزاهد هو الذي ترك الحلال المباح المحبب إليه فالمعري زهد في أكل الحيوان وهو حلال وهذا هو الزهد في الإسلام.

قال أحد تلاميذ المعري يرثي أستاذه:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقّت اليوم من جفني دماً⁽⁷⁾

فمع أن المعري امتنع من أكل الحيوان وزهد فيه وهو يعلم أنه حلال مباح ولم يزعم أنه حرام، فإن زهده أخذ سلاحاً ضده. فكيف يكون الزهد سلاحاً ضد صاحبه؟

يحدثنا الأستاذ علي سامي النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام أن المسلمين منذ أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان كانوا يغمزون في عقيدة من كان معروفاً بنباتيته فينسبونه إلى البرهمية الهندية وهي فلسفة تنكر النبوءات والرسالات السماوية ولا ترى ضرورة أو حاجة إلى الكتب والأديان⁽⁸⁾. فالنباتية - إذاً - كانت تهمة قاتلة لارتباطها بالبرهمية التي تجحد الرسل والرسالات. ومن هذا المنطلق أخذ أعداء المعري يلوحون ببرهميته من خلال نباتيته. فمن هم أعداء المعري الذين حاولوا نسبته للبرهمية؟ لقد كان للمعري أعداء كثيرون وكان ألدهم الشيعة الإسماعيلية التي أسست الدولة الفاطمية بمصر. والسبب في ذلك العداء أن المعري كان يمقت الشيعة بوجه عام ويمقت الإسماعيلية بوجه خاص، فلقد أنكر المعري أصلاً من أصول الشيعة وهو إيمانهم بالمهدي المنتظر حيث قال: -

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العَفْ بل، مشيراً في صبحه والمساء⁽⁹⁾

(7) البيت الأول من قصيدة نظمها أبو الحسن علي بن همام تلميذ المعري (انظر طه حسين. تجديد. ص. 176).

(8) النشار نشأة الفكر الفلسفي دار المعارف/ مصر 1977 - 1978 جزء 3 ص 132.

(9) أبو العلاء المعري لزوم ما لا يلزم تحقيق إبراهيم الأبياري ط 2 دار الكتاب المصري/ مصر 1982 جزء 1 ص 177 - 178.

فالإمام المنتظر في نظر المعري فكرة لا يدعمها دليل من النقل الصحيح الثابت ولا يؤيدها العقل السديد الراجح. مضافاً إلى ذلك أن المعري قد هاجم الشيعة كثيراً في رسالة الغفران، وهاجم المتأجرين بالدين مثل داعي الدعاة الفاطمي (الذي سيأتي ذكره)، كما كان صديقاً حميماً للوزير أبي القاسم المغربي الذي قاد ثورة عارمة ضد الدولة الفاطمية⁽¹⁰⁾.

ولما كان للمعري تلاميذ ومريدون فإنهم لا بد أن يكونوا قد تأثروا بأفكاره المناوئة والمناهضة للشيعة عموماً والإسماعيلية خصوصاً. وتحسباً من خطر المعري الداهم، فإن الدولة الفاطمية حاولت جاهدة استقطابه محاولة بذلك كسبه إلى جانبها ولو بالإقلاع والسكوت عن مهاجمتها. ولكن سائلاً قد يسأل: ما الصلة بين المعري - وهو رهين المحبسين في معرة النعمان - والدولة الفاطمية بمصر؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من نبذة تاريخية توضح العلاقة بين المعرة والقاهرة: تقع المعرة على مسافة أربعين ميلاً تقريباً جنوب شرق العاصمة الحمدانية حلب التي كانت مسرحاً للصراع بين العرب والروم لعدة سنوات ثم أصبح مسرحاً للحروب والمنازعات بين الدولتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة، وحيث إن المعرة من المدن المجاورة لحلب فإنها تابعة سياسياً للحكومة في حلب. فلقد كانت حلب أيام طفولة المعري تحت إمرة الأمير سيف الدولة الحمداني وقد بلغت أوج عظمتها في عهده. وما أن كبر المعري حتى أصبحت الدولة الحمدانية تضمحل على يد خلفاء سيف الدولة، وأصبح المد الشيعي يتوغل في سوريا ليبسط سلطانه ونفوذه على مدينة حلب، ففي سنة 394 هـ / 1003 م استطاع الفاطميون السيطرة على حلب والمدن المجاورة - ومنها المعرة - واستمر سلطان الفاطميين عليها لمدة عشرين سنة تقريباً، وفي سنة 414 هـ / 1023 م تمكن صالح بن مرداس - بمساعدة

(10) أبو العلاء المعري رسائل أبي العلاء تحقيق إحسان عباس دار الشروق بيروت 1982 ص 87 وكذلك انظر.

Margliouth, D. S. ed., trans., and comp the Letters of Abu'l Ala' of Ma arrat al - Nu man. Oxford, England, Clarenton Press, 1898. PP. xx, xxv.

الحليين - من الاستيلاء، على حلب وضواحيها ليؤسس الدولة المرداسية التي استمرت من 414 إلى 472 هـ / 1023 - 1079 م. ولكنها لم تكن قادرة على مجابهة الفاطميين الذين استطاعوا خلال هذه الفترة أن يستولوا على السلطة في حلب مرتين.

فهكذا كانت المعرة - بتبعيتها لحلب - تتأرجح بين بغداد والقاهرة - أو قل بين العباسيين والفاطميين - ومن ثم فإن الفاطميين رأوا أن من حقهم - أو من واجبهم - إخماد جذوة المعري المتأججة ضدهم فعرض عليه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أن يضع بيت المال بالمعرة تحت تصرفه ولكن المعري رفض ذلك بإصرار⁽¹¹⁾. فعرضوا عليه رئاسة مكتب دار العلم بالقاهرة، فرفض هذا العرض أيضاً وأثر أن يلزم فقره⁽¹²⁾.

وحيث لم يكن للإغراء جدوى فإن الفاطميين التجؤوا إلى إسكات المعري بوسيلة أخرى وهي استخدام صموده سلاحاً ضده لإظهاره لعامة الناس بأنه برهمي. وهذه الوسيلة من تدبير داعي الدعاة الفاطمي. وقبل أن ننظر في هذا الاتهام وأثره على عقيدة المعري، يحسن بنا أن نتعرف على داعي الدعاة:

إنه المؤيد في الدين أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران الشيرازي. كان - مثل أبيه - قد تقلد مناصب رفيعة في الدولة الفاطمية والتبشير لها ضد الدولة العباسية وأصبح رئيساً للمبشرين بالمذهب الشيعي الإسماعيلي في شيراز، ثم انضم إلى ثورة البساسيري ضد الخليفة العباسي، واستطاع بعد ذلك أن يقنع أمير حلب - معز الدولة - فحوله إلى المذهب الشيعي الفاطمي. وقد كان هذا أكبر إنجاز حققه الفاطميون في حلب وبه تحصل أبو نصر على لقب «داعي الدعاة»⁽¹³⁾ ونظراً لطموحه في الحصول على أكبر من هذه الرتبة

(11) كمال الدين بن العديم «الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري (في تعريف القدماء، بأبي العلاء، جمع وتصنيف لجنة بإشراف طه حسين، دار الكتب المصرية/ مصر 1944 ص. 565 و 578).

(12) السابق 577.

(13) المعري. رسائل تحقيق إحسان عباس ص 83 - 84.

فإنه رحل إلى القاهرة عاصمة الفاطميين واستمر في إخماد الأصوات المضادة والمعارضة للدولة الفاطمية.

وقد رأينا منذ قليل أن المعري كان معارضاً للشيعة وها قد عرفنا أن داعي الدعاة هو حامي حمى الشيعة الإسماعيلية. ونظراً لمركز الداعي لدى الدولة الفاطمية فإنه أصبح لزاماً عليه أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الخلاص من المعري وخطره الملحق. فلنستمع إلى الداعي وهو يقول: «قد انتهى إليكم خبر الضرير الذي نبغ بمعرة النعمان وما كان يعزى إليه من الكفر والطغيان على كون الرجل متقشفاً، وعن كثير من المآكل متعففاً، وقد كان خبره يتوصل إلى كل صقع بما يحرك النفوس للفتك به حمية بزعمهم للدين وغيره على الإسلام والمسلمين، . . . إن الغيرة تبيح قتله، وإنه متى بسطت له اليد على هذا السبيل اكتسب من الذكر الجميل والثناء بعد الموت ما لا حاجة بنا إليه، بل الواجب أن يجرّد له من يهتك بالمناظرة والمحاجة ستره ويكشف للناس عواره لينقص في عيونهم وينحط من درجته من بين ظهرانيهم⁽¹⁴⁾.

ولقد كان كلام الداعي هذا تصريحاً سرياً جداً ولم يكن الداعي لينشره بل كان من ضمن محاضراته التي كان يلقيها في مجالس دعاة الدولة الفاطمية بالقاهرة وكان يلقيها باسم الخليفة الفاطمي. ومن هذا يتضح أن هدف الداعي - والدولة الفاطمية - هو القضاء على شعبية المعري وذلك من خلال إظهاره كافراً. ونظراً لخبرة الداعي وحنكته فإنه أثر القضاء على المعري بالمناظرة والمجادلة لإظهاره خارجاً عن الدين بامتناعه عن أكل الحيوان والتزامه بالنباتية، لأن الامتناع عن الحلال - في نظر الداعي - معارضة لحكمة الخالق.

ذهب الداعي إلى حلب عام 449 هـ وأرسل إلى المعري من هناك أولى رسائله وقد جاء فيها ما معناه إن الامتناع عن أكل اللحم وسفك دماء الحيوان اعتراض على إرادة الخالق وحكمته، لأن الحيوان لو لم يكن مسخراً للإنسان لأصبح خلقه باطلاً لا معنى له، وحيث إن الله لا يخلق الباطل فإنني أطلب

(14) المؤيد في الدين هبة الله (داعي الدعاة) المجالس المؤيدية جمع وتصنيف حاتم بن إبراهيم الحميدي (انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص 387 - 388).

منك الحجة والبرهان على حقك في عدم أكل الحيوان⁽¹⁵⁾ ورداً على هذه الرسالة كتب المعري ما ملخصه أنه كان رؤوفاً بالحيوان، وأنه كان يظن أن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية، وأنه كان فقيراً وليس في مقدوره - مالياً - أن يأكل اللحم فاقتصر على ما تنبت الأرض⁽¹⁶⁾. وعلى رسالة المعري أجاب الداعي بأن عرض عليه جزيل العطاء ووافر النعم، ثم طلب منه أن يحضر إلى حلب ليعرف منه سبب امتناعه عن أكل اللحم⁽¹⁷⁾.

ومن هذا العرض فهم المعري ما يرمي إليه الداعي فرد عليه بما يفيد امتناعه الشديد عن قبول العطايا، واعتذر عن المجيء إلى الداعي في حلب، وقال بأن الزهد هو أن يترك الإنسان ما يحب، وضرب على ذلك أمثلة توضح أن النبي ﷺ والخلفاء والصحابة والمجاهدين من الأئمة كانوا يحبسون أنفسهم عن الشهوات وكانوا يتنازلون عن حقهم الشرعي ابتغاء مرضاة الله وغفرانه، ثم قال: «... وأما ما ذكره [الداعي] من المكاتب في توسيع الرزق عليّ فيدل على إفضال ورثه عن أب فأب، وجد في أثر جد حتى يصل النسب إلى التراب. فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة، وتركها صار له طبعاً ثانياً، وأنه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة⁽¹⁸⁾».

وعندما ثيقن الداعي بأن المعري لن تجدي معه المجادلة والمناظرة فإنه أرسل إليه رسالة جاء فيها: «... فأنا أعتذر عن سر له - أدام الله حراسته - أذعته⁽¹⁹⁾ ولم يرد المعري عن هذه الرسالة لأنه مات قبل وصولها إليه أو أنها وصلت إليه قبل موته مباشرة».

وهكذا يتضح أن الداعي استطاع أن ينفذ المخطط الذي كان يرمي إليه،

(15) انظر الرسالة في معجم ياقوت ص 176 - 181.

(16) السابق 181 - 189.

(17) السابق 190 - 194.

(18) السابق 200 - 201.

(19) السابق 213.

وهكذا يزعم الداعي أنه - دونما قصد أو سوء نية - أذاع سراً حول المعري ما كان يود إذاعته، إنه نباتية المعري التي تعني للعامة الخروج عن مبدأ إسلامي، وتعني الاعتقاد بمذهب فلسفي هندي ينكر النبوءات والرسالات والأديان السماوية وهو مذهب البرهمية. فهل كان الداعي فعلاً حريصاً على عقيدة المعري؟ بالطبع لا. إن الذي يهم الداعي - والفاطميي - هو إحراز أحد مكسبين، إما أن يسكت المعري ويقنع عن التشنيع بالشيعة، أو أن يصبح ملحداً أو كافراً أو زنديقاً في نظر العامة من الناس، وفي نظر تلاميذه ومريديه. وفي أي من الحالتين تصبح الدولة الفاطمية - الشيعة الإسماعيلية - في مأمن ممن شنع بهم أيما تشنيع.

مما سبق تتضح عدة أمور منها أن المعري كان نباتياً لأنه كان زاهداً في الحلال ويتضح - أيضاً - أنه كان يناهض الشيعة وفكرة المهدي المنتظر، كما يتضح أن الفاطميي كانوا يهدفون إلى القضاء على المعري لأنه كان يهدم أفكارهم وعقيدتهم، فحاولوا إغراءه ولم يوفقوا وحاولوا تهديده فلم يخش في الحق أحداً وبقي معارضاً للشيعة حتى وافته المنية عام 449 هـ.

وبعد أن ألقينا نظرة موجزة على نباتية المعري كما صورها هبة الله داعي الدعاة، يمكن لنا أن نتصور مدى تأثير ذلك على المؤرخين والكتاب والنقاد الذين كتبوا حول المعري بعد وفاته وبعد المناظرة التي تمت بينه وبين الداعي.

لقد عرفنا أن الداعي كان رجلاً مسؤولاً وكان مقرباً إلى الخليفة الفاطمي إلى درجة أنه أصبح الناطق باسمه في المحافل الدينية الرسمية. ولما كان «التاريخ يكتبه الحاكم»، فإن الداعي بحكم مركزه السياسي الديني استطاع أن ينشر رسائله التي وجهها إلى المعري والتي تظهر المعري ملحداً أو كافراً أو زنديقاً. ومن هنا استطاع الداعي أن يجعل العامة تعتقد كفر المعري بسبب نباتيته. وما إن ذاعت رسائل الداعي وانتشرت حتى توارث المسلمون زندقة المعري وبرهميته. أما رسائل المعري فما كان لها أن تذاع وتنتشر إبان حياته وحياة الداعي والسبب في ذلك راجع إلى أن المعري ليس حاكماً ولا مقرباً من حاكم فلم يكن يملك من وسائل الإعلام ما كان يملكه سياسي كبير كالداعي.

فالمعري فيلسوف شاعر زاهد يسكن في مدينة صغيرة تخضع سياسياً - ودينياً - للدولة الفاطمية التي كان هبة الله الشيرازي حامي حماها وداعي دعائها . ولذلك طمست رسائل المعري - في حياة الداعي - بينما رسائل الداعي ذاعت وتناقلها الناس والركبان وأسس عليها المؤلفون والكتاب فكرة أن المعري أنكر أصلاً إسلامياً يوجب قتله .

لقد رأينا أن المعري امتنع عن أكل الحيوان للأسباب السابقة الذكر وأنه لم يتزوج مطلقاً، وأنه لم يغادر بيته الذي أصبح له سجنًا لمدة نصف قرن، وأنه صام ستة وخمسين عاماً لم يفطر فيها إلا يومي العيدين . والسؤال الآن لماذا لم يتهم المعري في عقيدته بسبب عدم زواجه؟ ولماذا لم يتهم في عقيدته بسبب الصوم المتواصل؟ ولماذا لم يتهم بسبب سجنه نفسه وعدم مغادرة بيته؟ ولماذا اتهم في عقيدته ودينه بسبب نباتيته؟؟ .

الذي نراه أن المعري كان محباً للعالم والحياة من الطيبات ولكنه زهد في أحب الأشياء إلى البشر وهي المال والبنون، فزهده في المال جعله قانعاً بحياة الكفاف ممتنعاً عن طيب الطعام . وزهده في البنين جعله يمتنع عن الزواج . وبذلك فضل أن يعيش ستاً وثمانين سنة وهو عزب، منها ست وخمسون سنة صائماً، وخمس وأربعون سنة نباتياً . ولكن النباتية - كما عرفنا - كانت تهمة ضد صاحبها منذ صدر الدولة الإسلامية، ولذلك استخدمها الفاطميون سلاحاً ضد المعري الذي رفض السكوت للمتاجرين بالدين، ورفض تصديق فكرة المهدي المنتظر، وناهض الشيعة وعارضها في كثير من مبادئها .

فزهد المعري أصبح وسيلة لتكفيره من قبل أعدائه، ولكن هذا التكفير توارثه أغلب الكتاب والأدباء ليصفوا المعري بالإلحاد والكفر والزندقة لا لشي إلا لأنه كان نباتياً زاهداً ولأنه كان صادق الإيمان لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا جور ظالم ولا صولة حاكم .

وسنرى في مقالة قادمة أثر مراسلات الداعي في آراء النقاد والكتاب الذين وصفوا المعري بالكفر والإلحاد بسبب نباتيته .